الإنسان بين الأنثروبومركزية والرداءة

د. فاطمة الزهراء كلح
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة

ملخص:

تنصرف المادة العلمية للمقال إلى معالجة مسألة قيمة الإنسان أو مناقشة قضية الصدارة الإنسانية التي تصدى العلماء قديما وحديثا عربا وعجما للإدلاء بآرائهم في طبيعة علاقة الكائن البشري بأرضه وكونه ككل، فتباينت مواقفهم بين التأكيد على المبدأ الأنثروبي أي جوهرية الإنسان في الكون وبين الإمعان في تعميق مبدأ الفوضى الأزلية في الكون الذي قاد إلى تراجع عميق بالنسبة لمكانة الإنسان في الكون بكل أبعاده الروحية، إلا أن هذا التراجع بدأ ينحسر مع النصف الثاني من القرن العشرين بفعل المعطيات الفيزيائية والبيولوجية الجديدة المؤكدة على انضباط الثوابت الفيزيائية والكونية بصفة عامة مع وجود الإنسان، وهذا ما نجده واضحا في المعطيات القرآنية عن الكون والإنسان؛ لأنه الكائن الوحيد الذي يناط به جليل الوظائف ومضامين المسؤولية والتكريم التي تتنافى طبعا مع التيار المادي الذي يعمق الرداءة في سلوكات الإنسان ورؤيته تجاه كونه وذاته.

Summary:

This article discusses about the value of man, where the controversial debate thinkers on fundamental and existential relationship of mankind; and raises the key issue of the role of man and his spiritual bearings which is retracted to the second half of the twentieth century consolidating stability and tenacity of man by physical and biological data that are fully consistent with the interpretations Qur'an on man, his prominence and responsibility in the universe at any opposing point of view which emphasizes the materialist current behavioral mediocrity and the vision of the universe and man's own existence!

لا يعتبر علم الكون أو الكوسمولوجيا ــ (cosmology) حقلا علميا خالصا، بل إنه يتصل بشكل وثيق بنظرتنا للعالم وحياتنا ومعتقداتنا أيضا، ولذا نجد العلوم الكونية ترتبط بالأفكار الميثافيزقية والدينية والفلسفية، ومثالها: اعتقاد الإنسان بجوهريته في الكون وتبوئه محل الصدارة به مند فجر التاريخ البشري، أين اعتبر نفسه، جوهر الكون الذي يتمحور كل شيء حوله خاصة وهو يلاحظ ويعي أن الكون بكل محتوياته، ما هو إلا مجال مادي يساق لتمكين الإنسان فيه، وبغض النظر عن المعطيات الكونية القرآنية، فإن الاعتقاد بمركزية الإنسان وجوهريته في الكون، قد تجسد ضمن مبدأين أساسين هما:

- الجيومركزية (géocentrisme)
- الأنثروبومركزية (Anthrapocentrisme)

الأول منهما يستند إلى فلكيات بطليموس (ptolumose) وهو فلكي رياضي، عاش في القرن الثاني للميلاد.[1]

أما الثاني فهو المبدأ الأنثروبي، المشتق من الكلمة اليونانية (Anthropique) أي الإنسان، والذي يعتبر هذا الأخير جوهر الكون وغايته لما يلحظ من الملائمة والموافقة بين الإنسان، وما يحيط به من أحياء وجمادات ساهمت بشكل أو بآخر في هناء عيشه بتدليله .

وتسخيره لنفعه، وإزاء هذه الصدارة الإنسانية تصدى العلماء قديما وحديثا عربا وعجما للإدلاء بآرائهم في طبيعة علاقة الكائن البشري بأرضه وكونه ككل[2]

---

[1]- جمال ميموني ونضال قسوم، قصة الكون، (دار المعرفة، الجزائر، ـــ ط1، 1998م)، ص261

[2]- الموقع الإلكتروني: http //www.algscera.net السبت 11 أفريل 2010-الساعة 12: 00 وكذا الموقع http //science –islamic .net.

ففيما يتعلق بفلاسفة اليونان يمكننا تمييز موقفين:

- **الأول**: وهو الرأي الذي يؤكد على جوهرية الإنسان في الكون على أساس التراتبية التي تسود الكون المخلوق وفق خطة مسيرة من قبل مبدأ أعلى، ومن رواد هذا الاتجاه مثلا:أنا كسا غوراس (Anaxagoras)[1] وسقراط (scrat) 469 ق.م)[2]

- **الثاني**: وهو اتجاه فكري أمعن في تعميق مبدأ الفوضى الأزلية في الكون، بحكم أنه وجود متعلق بالتصادمات الكلية التي تسيرها الصدفة العمياء وهذا يعني انعدام أي هدف للكون فضلا أن يكون قد خلق وكيف من أجل وجود الإنسان وحياته، وأبرز من مثل الرأي مدرسة الذريين وعلى رأسها أبيقور (Epicure 346 ق.م-670 ق.م)[3]، وديمو قريطيس (470 ق.م Democrite)[4]، وقد كانت آراؤهما مادية صرفة تعتقد أن العالم أزلي أبدي تدفعه قوانينه الذاتية، وعلله الآلية العمياء إلى الاستمرار في الوجود إلى الأبد، فلا شيء يتولد من عدم ولا شيء يفنى إلى عدم (Exrithlo niheest)، وعليه فلا مجال للحديث عن الانتقال من اللاوجود إلى الموجود ومن الوجود

---

[1]- ولد أنا كسا غوراس في مدينة اقلازومانن وانتقل من هذه إلى أثينا، وأدخل الفلسفة لأول مرة في أثينا، أما عن فلسفته فقد ابتدأ من قبل أمبادو قليس وليوفبس، أي أنه بدأ من فكرة الوجود عند برمانيدس وأنكر فكرة التغير المطلق سواء كان كونا أم فسادا.عبد الرحمن بدوي موسوعة الفلسفة، (الموسوعة العربية، بيروت، ط1، 1984م، ج1، ص236 مادة (أناكساغوراس).

[2]- بطرس البستاني، دائرة المعارف، (دار المعرفة، بيروت-لبنا، د، ت)، ج9، ص636.

[3]- المرجع نفسه، ج2، ص416.

[4]- البستاني، دائرة المعارف، ج8، ص233.

إلى اللاوجود بفعل قوى إلهية،[1] وقد وجد للموقفين السابقين صدى عميق لدى خلق كبير من العلماء ممن عنوا بدراسة العلاقة بين الإنسان والكون، فمن أتباع الموقف الأول نجد العالم كبلر (kapler1571–1630)[2] الذي قاده إيمانه بالخالق، إلى الاعتقاد بالأنثروبومكزية، ولذا فقد حرص على توجيه المغزى من خلق الكون صوب الإنسان، ومن ثم تقرير فكرة الهدف المسطر في الوجود والتي أصطلح على تسميتها (التيليولوجيا)، وكذا نيوتن (issacneuton 1643–1727)[3] الذي قادته إيمانيته إلى تقرير مبدأي الأنثروبو مركزية والتليولوجية، بحكم أبحاثه الفيزيائية ومعطياته المؤكدة على وجود أهداف لكل قانون يحكم الظواهر الكونية، وكذا من المسلمين البيروني[4] وابن رشد (ت 595هـ)[5] اللذين اعتبرا الإنسان أفضل خلق الله وكل ما عداه ميسر له ولمنفعته.

---

[1] –عرفان عبد الحميد،الفلسفة الإسلامية دراسة ونقد(مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط2_1424_1984م) ص 78.

[2] – www.edumedia_sciences.com 2010_04_14 .

[3] – http//www.ar.wikipedia.org/niki .

[4] – هو محمد أحمد أبو الريحان ولد سنة 973 م بخوارزم هو فيلسوف مؤرخ ورياضي توفي في أفغنستان عام 1046 م لجنة من العلماء الأكادميين، الموسوعة الفلسفية المختصرة، ترجمة: فؤاد كامل، جلال العشري (دار القلم، بيروت / لبنان، د.ط، د.ت) ص 142 مادة البيروني .

[5] – ابن العماد، شدرات الذهب في أخبار من ذهب (دار الأفاق بيروت– لبنان، د، ط، د، ت)، ج4، ص320

وكما وجد أتباع للموقف الأول فكذا الأمر بالنسبة للموقف الثاني، حيث رفضت ثلة من المفكرين والفلاسفة فكرة جوهرية الإنسان في الكون، وأبرزهم (نيكولاس كوبرنيكس 1473م-1543م) (Nicolas copernices)[1] الذي أطاح باعتقاد مركزية الأرض، وأحل محلها الشمس وجعل الكواكب الأخرى ومن ضمنها الأرض تدور حولها، وقد اعتبر هذا صدمة كبيرة للكنيسة آنذاك، لأن إزاحة الأرض عن المركز يعني أن الجحيم التي بوأتها الإيمانيات المسيحية مركز الأرض، قد أهملت في زاوية دون أي خصوصية فلسفية أو دينية، وأن الإنسان الذي صوره الرب على شاكلته قد انهارت صدارته وقبع مترويا، وهذا أجج فتيل الغصب الكنسي ضده وضد غيره من الفلكيين أمثال غاليلو (Galileo) (1564م-1642م)[2] الذي قادته أبحاثه الفلكية إلى رفض المبدأ الأنثروبي بنفس قوة رفضه للمبدأ الجيو مركزي، على اعتبار الارتباط العلمي والفلسفي بينهما، أما ابن ميمون (529هـ-601م)[3] فقد وصف جوهرية الإنسان في الكون بأنه

---

[1] - عالم فلك ورياضيات وفيزياء، بولوني الأصل ولد في نورن، درس في جامعة كراكوفيا ثم في جامعة بولونيا .حصل على لقب دكتوراه سنة 1503، انطلق من مبدأ الأرض ليست مركز الكون.ياسين صلواتي الموسوعة العربية الميسرة والموسعة (مؤسسة التاريخ العربي، بيروت)، ج6، ص6-29.

[2] - الموقع الالكتروني: wikipedia .org/wiki.org/wik يوم 14 أفريل 2010 الساعة 14.00

[3] - خير الدين الزركلي، الأعلام (دار العلم للملايين، (بيروت لبنان، ط7، 1986م-ج7، ص22

اعتقاد ساذج أمام حجم الكون، الذي لا يقارن بذلك المخلوق البشري فكيف يعقل أن يكون ذلك الكون بكل مخلوقاته هدفا لذرة صغيرة[1].

إلا أن التراجع الحقيقي لمكانة الإنسان في الكون بكل أبعاده الروحية بدأت تتضح معالمه وتكتمل صورته مع مطلع القرن العشرين ومعطياته الفلسفية، التي قضت على الأمال المركزية للإنسان وهو ذلك الكائن الذي لا يتعدى وجوده الزمني بالتقريب بضعة مليون سنة في كون موجود من زمن طويل حوالي (10) أو (15) مليار سنة، هذا بالإضافة لمعطيات بعض النظريات الفلسفية والعلمية، خاصة منها نظرية التطور البيولوجي التي اعتبرت صورة الإنسان محطة لمجموع تراتبية تطورية واستمر هذا السير الاحتقاري لمكانة الإنسان أين عملت فلسفات كثيرة على ترسيخ الإيمان به كتوغل البعد المادي في المفهوم الإنساني ضمن ما يعرف بالفلسفة المادية[2] وتغييب الجانب

---

[1]- جمال ميموني، نضال قسوم، قصة الكون، ص265 -269، ومصطفى النشار، مدرسة الاسكندرية الفلسفية بين التراث الشرقي والفلسفة اليونانية (دار المعارف القاهرة، ط1، 1995م) ص152 .

[2] -المادية: مصطلح فلسفي يستخدم في مقابل مصطلح آخر هو المثالية، وتوصف به اتجاهات ونزعات فلسفية عديدة تشترك في القول بأن الأصل في الموجودات هو المادة لا الروح أو العقل أو الشعور، مجموعة من الأساتذة، الموسوعة العربية العالمية، (مؤسسة أعمال الموسوعة، الرياض- السعودية، ط2، 1419هـ-1999م، ج22، ص47، (مادة: المادية)

الروحي السامي، وكذا الوجودية [1]التي أمعنت في سحب الكائن البشري إلى مبادئ التيه النفسي والفكري والتغريب المعرفي، المحفز لقطع أي ارتباط بينه وبين الخالق.

ليس هذا فحسب بل إن كل هذا التداعي لقيمة الإنسان، أعطى الفرصة لدعوي بعض المفكرين من أجل خلع أي قيمة عن الإنسان أو إحلاله مكانة رفيعة، تخول له امتلاك زمام الأرض فضلا عن الكون ذاته وهذا يعني إسقاط المعيار الإنساني في كل نظرية فلسفية أو دينية، طالما أنه كائن فاقد لجوهرتيه موغل في ماديه صمة. وقد سمي هذا لموقف الجديد من الإنسان بمبدأ الرداءة (principle if mediocrity).

إلا أن هذا التدهور الكبير لمكانة الإنسان في الكون وإقصاء جوهريته، قد بدأ يتراجع مع منتصف القرن الثاني من القرن العشرين بفعل المعطيات الفيزيائية والبيولوجية الجديدة التي أوضحت أن الكون ذاته قد ضبطت قوانينه بحكمة شديدة، تجعل وجود الإنسان فيه حتميا فضلا عن كونه ممكنا، وهذا لأن الثوابت الفيزيائية التي يقوم وجود الكون عليها مكيفة لحياة ذلك الكائن البشري.

وهذا مضمون المبدأ الأنثروبي أو المبدأ الإنساني (Antropic principale) وهو توجه فلسفي ذو نهج علمي بدأ مع نيوتن الذي صاغ قانونا جوهريا، للأجرام السماوية يمنعها من السقوط في هاوية الفضاء موضحا خلالها أن ثقل الأرض هو في مركز تكورها وهي التي تجذب الأجسام التي عليها نحوه، وهذا القانون هو الذي يربط

---

[1] – مذهب فلسفي أدبي ملحد وهو أشهر مذهب استقر في الآداب الغربية في القرن العشرين ويركز المذهب على الوجود الإنساني الذي هو الحقيقة اليقينية الوحيدة في رأيه، ويمكنه أن يصنع ذاته وكيانه ويتولى خلق أعماله دون ارتباط بخالق أو بقيم خارجية

http/www .saaid.net – في يوم 14 أفريل 2010 في الساعة 14.00.

الأجسام السماوية ويحفظ تماسكها وانتظامها في مدارتها[1] .إلا أن معالم المبدأ الأنثروبي لم تبدأ في الاتضاح بشكل دقيق إلا سنة 1974 مع البريطاني براندن كاتر (Brander carter)، الذي كان له السبق في إدخال مصطلح المبدأ الأنثروبي في المنظومة العلمية رغم أن ذات المبدأ قد تمت صياغته بطرق مختلفة من طرف أشخاص من قبله. وهذا لأنه قدم أعمالا غاية في الأهمية تستهدف تلك الدقة المذهلة الموجودة في قيم الثوابت الفيزيائية وتناسقها، بحيث ترغم ملاحظيها على الخلوص إلى حتمية فكرية وهي أن هذا الكون قد اختيرت خواصه بحكمة ودقة بالغتين لضمان ظهور الإنسان عند نقطة معينة وبالتالي يجب على أي نظرية كونية أن تعتبر ذلك في أحكامها، وقد سمي مبدأ كارثر هذا بالمبدأ الأنثروبي (weak Anthropique) الضعيف الذي تلاه:

المبدأ الأنثروبي القوي: وهو القائل بأنه يجب على الكون أن يمتلك خصائص دقيقة حتى يمكن للحياة أن تظهر وتتطور بداخله في مرحلة من مراحل تاريخه، وحسب رأي العالمين ريتشاردز (Richards) وغوانزاليس (Goisales) بإمكان المبدأ الأنثروبي أن يذهب إلى صيغة أقوى، أين يمكن لنا التأكيد أنه ليس الكون فقط بل أن المجرة والنظام الشمسي والشمس والقمر والأرض كلها ثم ترتيبها بدقة من أجل وجود الإنسان.

المبدأ الأنثروبي القوي جدا: وينسب للعالم جان ستون (jean stone) الذي يجزم بأن الكون أعد لحياة متطورة وأكثر تقدما من الإنسان كي تنشأ وهذا يبرز تناغم الإنسان مع معطيات الكون

---

[1] – عبد الحليم عبد الرحمن خضر، الإنسان والكون بين القرآن والعلم (عالم المعرفة، جدة، السعودية، ط1، 1403هـ–1983م)ص219

المبدأ الأنثروبي الفائق: وهو الذي يتبنى جوهرية الإنسان في الكون بالإضافة لفكرة التسخير، أي تسخير الكون له[1].

وهذا ما نجده واضحا في المعطيات القرآنية عن الكون والإنسان لأن الإنسان هو الوحيد من بين كل المخلوقات من تناط به وظائف جليلة في الذكر الحكيم، لأنه بطبيعته وسلوكه وواجباته وعلاقته بمحيطه وكونه بشكل عام، ينال اهتماما مركزيا في النص القرآني بحكم العلاقة الكائنة بين الإدراك البشري الواعي للكون وبين التصور السليم للذات الإلهية كذات وصفات، وهذا لأنه لا وجود في القرآن الكريم لثقافة الفصل بين عالم الطبيعة وعالم القيم والمعتقدات، ليس هناك مجالا لإله منفصل عن الكون، يبرز فقط ضمن فهمنا العلمي بحكم المعطيات الفلكية، إن إلها من هذا النوع هو أعمق بكثير من الخيال.

ولذلك فحينما نناقش المفهوم الإنساني ضمن الرؤية الجاهلية السابقة لقدوم النبي محمد عليه الصلاة والسلام، نجد أن مصير الإنسان وموقعه في قبيلته، وعلاقة هذه الأخيرة بغيرها من القبائل كل ذلك كان يمثل المشكلة الرئيسية للإنسان في تلك الفترة، إلا أن هذا لا ينفي طبعا إدراكه لقوى مرئية وغير مرئية كالجن والأصنام التي كانوا يعبدونها زلفى لله، إلا أنها تحتل في النهاية حيزا ضيقا ومحدودا من العالم الذي يهتم به، بحيث يستحيل أن يتحول الموضوع إلى تفاعل فكري يتولد عنه مفهوم إنساني رئيسي قائم بذاته.

أما في القرآن فثمة علاقتان أساسيتان بين الله عز وجل والإنسان.:

أ/العلاقة الأنطولوجية (الوجود): وهذا يعني وجود ثنائية حدها الأول"الله عز وجل كمصدر للوجود الإنساني ثم الإنسان بوصفه ممثلا لأفضل خلقه على الإطلاق.

---

[1] – الموقع الإلكتروني: htpp//science-islamic.net htpp//www.aljsecra.net

ب/العلاقة التواصلية: حيث نجد ذلك الترابط المتين بين الله عز وجل والإنسان دون الحاجة إلى وسائط افتراضية أقرب ما تكون إلى الوهم، وأول أنواع هذه العلاقة التواصلية هو:

***الوحي:** وهو الهداية الشرعية التي يصطلح على تسميتها الوحي، ذلك أنه تعالى لم يترك عبيده من بدء الخلقية دون إرشاد وتوجيه سماوي، إذ اقتضت العناية الإلهية أن تصطفى طائفة من البشر مبلغين عنه وحيه وشرعه.

* **العبادة:** وهي تعبر عن كل القربات والطاعات التي تزيد من دنو العبد من خالقه بكل أنواعها مالية أو بدنية أو قلبية... وهي تمثل عين التكريم والجوهرية اللذين خص بهما الله عز وجل الإنسان ككل وتتضمن أيضا كل معاني الخضوع والطاعة المطلقة له تعالى[1] على الرغم مما يصدر عن بعضهم من غطرسة وتكبر وغرور، لأن الإنسان حسب ما ورد في القرآن الكريم هو محور الكون وموضع التكريم والعناية، فقد خلقه في أحسن تقويم: "**قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾"[2].

وكذالك **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾[3] وهذا يشير إلى حسن صورته

---

[1] – توشيهيكو إريروتسو، الله والإنسان في القرآن، ترجمة: هلال محمد الجهاد، (بيروت، ط1 ن2007م)، ص129–131 وانظر نايف معروف، الإنسان والعقل، (بيروتند، ط، د، ت)، ص53.

[2] – سورة التين، الآية: 04.

[3] – سورة غافر، الآية: 64.

واستقامة بدنه وهذا موضع من مواضع التفضيل الذي هو احد عناصر المبدأ الأنثروبومركزي.

وقد أشار الرازي (544هـ ـ606 هـ)[1] إلى مسألة التكريم والتفضيل، وأبان وجه ورودهما على غير سبيل التكرار، لهذا فقد صرف معنى التفضيل إلى كونه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[2] حيث ذكر أنه لابد من التفريق بين التكريم والتفضيل وإلا لزم التكرار لذا فقد صرف التفضيل إلى كونه تعالى فضل الإنسان على سائر الحيوانات بأمور خلقية طبيعية ذاتية مثل الصورة الحسنة والقامة والعقل ثم مكنه بذلك العقل لإكتساب العقائد والأخلاق الفاضلة وهذا هو التكريم لأن بدنه أشرف الأبدان الموجودة في العالم السفلي ونفسه أشرف النفوس الموجودة في العالم السفلي لاختصاصها بالقوة العاقلة المدركة لحقائق الأشياء والمستنيرة بنور معرفة الله المتأتي من النفخة القدسية في ذلك الكائن المبجل لذا كان هو اشرف الموجودات بحكم قربه من الوجود الأشرف والأكمل على الإطلاق، وهو الوجود الإلهي، وهذا القرب هو الذي خول له استنارة قلبه بمعرفته تعالى وتكريم جواره بذكره وطاعته[3].

---

[1]- عدد من الأساتذة، الموسوعة العربية العالمية (مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع الرياض- السعودية، ط1، 1419هـ 1999م)، ص59: مادة الرازي.

[2] - الإسراء، آية: 70.

[3]- فخر الدين الرازي، التفسير الكبير (دار الفكر بيروت لبنان، ط1 1401هـ- 1981م) مج11 ص13، 15.

وهذه المضامين التكريمية تتنافى طبعا مع التيار المادي الذي ألغي البعد الروحي للإنسان واختصره في مضامين وأهداف مادية بحتة، ألغت إنسانيته، وعصفت به بعيدا عن مكانته كمخلوق مكرم يسير المادة وتسير إليه .

إن الفلسفة المادية عمقت بعد الرداءة في سلوكيات الإنسان وحجم رؤيته تجاه نفسه وعالمه في حين أنه كائن يعي ذاته، إنه الكائن الوحيد القادر على استخلاص أشد أنواع المعرفة تجريدا بعمليات ذهنية غاية في الدقة والتعقيد .

ثم إن شعور الإنسان بحركة فكره المتواصلة مع الزمان، تثبت له أن المفكرة مغايرة لبدنه تماما وهذا لأنه حتما يتفاعل مع الحياة على غير مقتضى العشوائية سواء الدينية منها أو الأخلاقية، ولا يمكن بأي حال أن نصف تلك الحوافز بأنها مادية، وهذا عين ما يبين الفارق بين الإنسان وغيره من الكائنات الحية وغير الحية، التي لا تصدر في سلوكها عن إرادة واعية وفكر استدلالي وكلها لا تخضع لقوانين المادة بل إنها قاصرة عن تفسير التصورات الإنسانية المجردة ومقرها العقل الدعامة الأساسية لتحقيق رسالة الإنسان على الأرض، وهي الخلافة وتعمير الأرض، بناء على إمكانياته الكبيرة اللامحدودة والدالة على أنه تعالى قد أوجد فيه من الاستعدادات الإدراكية والعملية ما لم يوجد في مخلوق آخر، لأنه الكائن[1] الوحيد القادر على تعقل ما حوله وإعطائه هدفا وغاية.

كل هذا يقودنا إلى تحديد وضعية الإنسان بالنسبة إلى بقية المخلوقات وهذه أهم عناصرها :

---

[1]- أبو الوفا الغنيمي التفتازاني، الإنسان والكون في الإنسان (دار الثقافة للنشر والتوزيع، د.ط، 1995م)، ص67، 71.

1 ــ الإنسان خليفة الله في الأرض : مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ .[1]

وما سماه الله عز وجل خليفة إلا لأنه يخلف الله عز وجل في الحكم بين الخلق بالحق[2]، وهذا يؤكده قوله تعالى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾[3]، وخلافته هذه مغزاها تعمير الأرض وإشاعة الخير والسلام فيها وهذا أيضا محتوى الأمانة التي حملها وبمقتضاها كرمه الله عز وجل بالقدرة على التعلم وحيازة المعرفة التامة لخصائص الأشياء لقوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[4] وهذا يدل على أنه كائن كريم على الله عز وجل ذو محورية في تصميم الوجود على الرغم من استعداداته الطبيعية للضعف والخطأ والقصور .

---

[1] – سورة البقرة، أية: 30.

[2] – الرازي، التفسير مج1 ص180 وانظر أحمد إبراهيم، الإنسان في القرآن الكريم (المكتبة العصرية بيروت د.ط.د.ت)، ص47ــ48.

[3] – سورة ص، أية: 25

[4] – سورة البقرة، آية: 31.

2 ــ إنه مخلوق سخرت له كل المخلوقات :إن مظاهر التسخير هذه بادية في كل أجزاء الكون من نبات وحيوان ناطقة بمظاهر العناية الشديدة بذلك الكائن البشري[1] وهذا ذاته ما دفع الإمام الغزالي (450 ــ 505)[2] إلى اعتبار جملة الكون كبيت معد به جميع احتياجات الإنسان .فالسماء هي السقف والأرض ممدودة مهيأة للإنسان كالبسط والفرش، والنجوم منصوبة كالمصابيح، وهذا كله مهيأ لنشأة الإنسان وحياته لأنه مالك ذلك البيت وسيده، وهذا تقرير بمحورية الإنسان في الكون [3].

إن هذه المكانة الكريمة التي يتبوأها الإنسان في الكون، تمكننا تجاوز الطرح المتعلق باختبار مصداقية محوريته في الكون، إلى أفق أوسع وأبعاد أعمق موغلة في علاقات جمالية بين الإنسان والكون وهو ما نسميه بالتعاطف والألفة بين الإنسان وعالمه على أساس المشاركة والانسجام القائمين بينهما، وهذا تماما ما ركز عليه بعض فلاسفة الإسلام الذين اعتمدوا نظام المشابهة بين العالم (الإنسان الصغير) والإنسان (العالم الكبير) وهو تفسير شامل للعالم مبناه التركيز على المقاربات الشديدة بينهما، باعتبار الإنسان الكائن الوحيد الأتم صورة والأشد شبها بجملة العالم الكبير والعالم الصغير، ومن ثم توضيح العلاقات الداخلية بين الإنسان والطبيعة حيث يكون العالم بمجموعه عبارة عن كائن عضوي حي، يماثل في عضويته وحياته أجزاء الجسم العضوي للإنسان بكل مظاهر الحياة العضوية التي تدب في أوصاله وكل ما يحيط به من شؤون

---

[1] – الراغب الأصفهاني، الذريعة إلى مكارم الشريعة، (دار الصحوة القاهرة ط1 1405ــ1985 م) ص 84.

[2] – الزركلي، الأعلام مج 7، ص22.

[3] –رسائل الإمام الغزالي في مخلوقات الله عز وجل (دار الكتب العلمية بيروت ط1 1441هـــ-1994م)، ص 4.

حياته، وهذا لما يحقق من صور توافقية بتناغم فيها كل من العالم والإنسان لإظهار وحدة لا نشوز فيها، باعتبارها صنع الواحد الخالق ومن ثم الوصول إلى الإعلاء من قيمة ومكانة هذا العالم الصغير أي الإنسان[1].

وهو رأي إخوان الصفا[2] الذي لم يبتعد عنه ابن سينا[3] الذي سعى الى إحكام الوصل بين مبادئ العلوم الطبية والعلوم الكونية، ليحقق أفضل فهم للعلاقة الموجودة بين العالم والإنسان من جهة وبينهما وبين خالقها من جهة ثانية، فقد أقام هذا الفهم على مبدأ العشق الذي يسود الكون كله، لأن لكل الموجودات شوقا غريزيا ولذلك تمتلك القوى النباتية والحيوانية نوعا معينا من العشق الموافق لوظيفتها، فالرغبة في الحفاظ على الطعام في الجسم أو زيادة حجم الجسم كي يتناسب مع أبعاده كذلك العشق الطوعي للحيوانات كلها تصدر عن العشق والتعاطف الكوني السائد بين جميع المخلوقات، ثم يزيد ابن سينا في إبراز التعاطف الكائن بين كل من العالم والإنسان، على مستوى الطقوس الدينية هذه الأخيرة التي تؤدي إلى زيادة التعاطف والألفة بين

---

[1] -لحلح الزهرة، العالم والإنسان في فلسفة إخوان الصفا (رسالة دكتوراه كلية أصول الدين والشريعة والحضارة الإسلامية، قسم العقيدة ومقارنة الأديان 208م-2009م) ص 14ـ15.

[2] - إخوان الصفا وخلان الوفا، جماعة فلسفية سرية ظهرت في نهاية القرن الأول الهجري بسوريا، وهم من الشيعة الإسماعيلية التي عملت على التوفيق بين الحكمة والشريعة . لحلح الزهرة، الآراء العقدية في فلسفة إخوان الصفا، (رسالة ماجيستير، كلية أصول الدين والشريعة والحضارة الإسلامية، قسم العقيدة ومقارنة الأديان، 1999م-200م) أنظر الفصل الأول.

[3] - ابن سينا: هو الرئيس الحسين بن عبد الله بن سينا أبو علي الفيلسوف صاحب التصنيف في الطب والمنطق والطبيعيات والإلهيات ولد سنة 370هـ أصله من بلخ ومولده كان في إحدى قرى بخارى التي نشأ وتعلم بها أما وفاته فكانت سنة 428هـ الزركلي، الأعلام ج2 ص241.

العالم الصغير والعالم الكبير، لأنها تقوي روحانياته وتساعد على إدخال نظام العالم إلى داخل كينونة الإنسان وتجعله جزءا منها، حينها يهتز داخله بالرجاء معلقا الآمال على أن تتوجه إرادة الخالق إلى مظاهر الكون لتحصيل نفع البشر ومثاله صـــلاة الاستسقاء[1]

أما ابن رشد فقد عبر عن مبدأ التسخير بالموافقة والملائمة بين الإنسان والكون، جازما خلالها بتعارض هذه الموافقة مع الاتفاق والصدفة في الخلق، لأن الموافقة ضرورة من قبل فاعل قاصد لذلك مريد لذا فقد أشار إلى موافقة وتسخير الليل والنهار والشمس والقمر لوجود الإنسان، وكذا مظاهر العناية المتجلية في استواء أعضاء بدنه وموافقته لحياته ووجوده، ثم إن الزمان نفسه ممثلا بالفصول الأربعة فيه حكمة بالغة لهناء عيشه[2]

وهذا ما تكلم عنه لسان العلم الحديث الذي أبان أن الأرض التي نعيش عليها لها موقع ممتاز بالنسبة للشمس وأنها ذات حجم ممتاز . الأمر الذي جعلنها أنسب الكواكب للحياة، فالدورة التي تقطع الأرض فيها رحلتها حول الشمس، ملائمة جدا لتنوع الفصول الأربعة (الخريف، الشتاء، الربيع، الصيف) وفي ذلك تنوع مناخات الأرض على مدار السنة، مما يجعلها صالحة لسكنى الناس، ثم إن خاصية الغلاف الهوائي تجعل منه أنسب معطى لحياة الإنسان وبقية المخلوقات حيث تبلغ نسبة الأكسجين 1/5 من حجم الهواء ولو زاد أكثر لاحترق الكوكب كله بمجرد إشعال عود ثقاب واحد[3].

---

[1] – سيد حسين نصر، مقدمة إلى العقائد الكونية الإسلامية، ترجمة: سيف الدين القصير (دار الحوار للنشر والتوزيع اللاذقية –سوريا ط1 1991م) ص 187– 188.

[2] – ابن رشد الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، تقديم: محمد عابد الجابري (دار العلم، بيروت، ط1 1998) ص80.

[3] – عبد العليم عبد الرحمان خضر، الإنسان في الكون...ص228.

وإذا ما تحدثنا عن مبدأ التسخير ضمن النصوص القرآنية، فإننا نجده على مستويين :

1 ــ **المستوى الأول:** وينصرف إلى تلك السنن الجارية والقوانين السارية في الكون بأمره تعالى دون أن يكون للإنسان يد في تسييرها أو قدرة على تغييرها، وكلها وجدت لمصلحته، ومتوائمة مع حياته ككل وهذا النوع من التسخير أشارت إليه الآيات التالية **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴾ [1] وكذا قوله **تَعَالَىٰ:** ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [2] .

2. **المستوى الثاني:** من التسخير فهو يتعلق بتسخير القدرة على الاكتساب والتعلم، والتمكين له بأنواع المعارف بواسطة الملكة العقلية، التي تخضع لإرادتها وقدرتها كل المخلوقات فيصرفها لمنفعته وهناء عيشه كقوله تعالى **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ

---

[1] – سورة إبراهيم، آية: 32 .

[2] – سورة النحل، آية: 10.11.

ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ﴾[1]. ولمكانة الإنسان وكرامته عند الله عز وجل فإنه كذلك قد فضله بتسخير تجاوز المخلوقات الأرضية إلى السماوية منها، حيث سخر له ملائكته الكرام الذين هم أهل قربة، استخدمهم له وجعلهم حفظة له في منامه ويقظته وجعلهم سفراء وحيه[2].

كل هذا يجعلنا نطرح العلاقة القائمة بين الإنسان والكون ضمن أبعاد جمالية وأخلاقية، لا موجب فيها للصراع والغلبة ولا مجال بها لمشاعر الخوف والقهر، لأنهما وجهين لعملة واحدة وهي خلق الله الذي أحسن كل شيء، إنهما يشتركان في أمور عديدة من بينها :

الخضوع لسنن الله وقوانينه وأولها وحدة المآل والطاعة، وكل من الكون والإنسان خلق الله الذي لا يخرج عن طوعه إن في البدء أو في الانتهاء مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴾[3] فكل من الإنسان والكون يتفاعلان مع بعضهما البعض في إطار انسجامي لتحقيق توازن يوكل للإنسان أمانة المحافظة عليه، وقد أبان سبحانه وتعالى في آيات كثيرة ضوابط معرفية لإحداث هذا التوازن بإشارات تعليمية مستفادة حتى من الحيوانات دقها وجلها، ومثاله تلك الكائنات البحرية الميكروسكوبية التي تؤدي دورها في الحفاظ على النظام البحري، بتطهيره من كل الملوثات، وكذا ما نجده لدى النحل الذي لا يتخطى

---

[1] – سورة النحل، آية: 80.

[2] – ابن القيم مدارج السالكين (دار الكتاب العربي بيروت، د .ط، د .ت)، ج1، ص21.

[3] – سورة آل عمران، آية: 109.

وحي الله عز وجل في تحري منافعه مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾[1] فهذا إيحاء وتلميح للبشر كي يستفيدوا مما حولهم في إطار مفهوم التسخير، فلا يستدبروا وحيه ولا يتنكبوا هديه[2]هكذا تتضح الأبعاد المفهومية لعلاقة الإنسان بكونه ومن ثم مكانته فيه، إنما تقوم على الألفة والمودة والتكامل الوظيفي بينهما، لأنهم جميعا خلق الله الذي أراد أن يكرم الإنسان بكون متوازن الأبعاد والخصائص، ينبغي عليه أن يعمره وفق كل القيم التي حددها ورسمها له الشرع الحنيف حيث لا مجال للحيف والفساد، الذي نراه حاصل اليوم في حق الإنسان ذاته، من جراء تنازله عن مكانته القيادية لرغبات وشهوات عصفت به ودفعته إلى تضييع من استأمنه الله عز وجل عليه وهو الكون بكل ما فيه من مخلوقات، ومن صور ضياع تلك الأمانة: اختلال توازن الكون، وتفشي مظاهر التلوث الجوي كانخرام طبقة الأوزون وحركات التسلح النووي والرهانات الاقتصادية التي تتم على حساب ضعفاء الأرض .

غير أن هذا لا ينفي عنه جوهريته ومركزيته في الكون. بل إنه يعد من أقوى الأسباب التي تدفع بالإنسان إلى مراجعة سلوكياته للحفاظ على نعمة التبجيل والتكريم، وإلا فلربما سيحرم منها يوما ما لأن النعمة حقها وحفظها يكون بالشكر، ومحل الشكر هنا صون الاستخلاف والتعمير وفق الأبعاد الشرعية والأخلاقية .

---

[1] – سورة النحل، الآية: 68

[2] – عبد المجيد النجار، قضية البيئة من منظور إسلامي (وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، الدوحة قطر، ط، 1 1420هـ– 1999م)، ص 56 .